التأثير الفكري والثقافي للمغرب الأوسط في السودان الغربي ما بين القرنين 7هـ - 9هـ/ 13م- 15م

محمد الصديق بن صالح
جامعة المسيلة
msaleh471974@gmail.com

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى إبراز الدور الفكري والثقافي للمغرب الأوسط في السودان الغربي ما بين القرنين 7هـ - 9هـ / 13م – 15م وانعكاساته في شتّى مجالات الحياة والعوامل المتحكمة في هذا الاتصال الحضاري. كما يتعرّض لدور أهم علماء المغرب الأوسط في تأطير الحركة الفكرية والثقافية بالسودان الغربي وأثرهم على المنطقة من خلال نشر اللغة العربية ومبادئ الدين الإسلامي ومختلف العلوم النقلية والوضعية وكذلك تكوين علماء من أبناء المنطقة (السودان الغربي)، ليتّضح في الأخير أن التأثير الفكري الثقافي للمغرب الأوسط في السودان الغربي في هذه الفترة كان إيجابيا في جميع المجالات.

الكلمات المفتاحية:

التأثير الفكري – التأثير الثقافي – المغرب الأوسط – السودان الغربي – القرنين 7هـ - 9 هـ / 13 م – 15 م.

Abstract:

This article aims to highlight the intellectual and cultural role of the Middle Maghreb in Western Sudan between the centuries: 7 AH - 9 AH / 13 AD - 15 AD and its repercussions in various spheres of life as well as the influencing factors in this civilizational contact. It also exposes the role of the most important Middle Maghreb scholars in framing the intellectual and cultural movement in western Sudan and their impact on the region through the spreading of the Arabic language, the Islamic principles, and various traditional and empirical sciences, in addition to the formation of scholars from the sons of the region (Western Sudan). It becomes clear at the end that the cultural

and intellectual influence of the Middle Maghreb in western Sudan in this period was positive in all areas.

Keywords:

Intellectual influence - cultural influence - Middle Maghreb - Western Sudan - the centuries: 7 AH - 9 AH / 13 AD - 15 AD.

مقدمة

تعتبر العلاقات بين شمال إفريقيا وجنوبها من أهم العلاقات عبر التاريخ، ولقد كان لهذه الأخيرة آثارا في جل الميادين، وخاصة بعد الفتح الإسلامي، إذ أن اتصال العرب والمسلمين المغاربة بشعوب الصحراء وما وراءها في بلاد السودان الغربي، كان بمثابة انتعاش للشعوب السودانية من خلال حركة القوافل التجارية والدعاة الفاتحين الذين حملوا معهم بذور حضارة نمت وترعرعت في مدن صحراوية مهمة، مثلت محطات التقاء التجار والدعاة والفقهاء والعلماء مثل: أُودغست، وسجلماسة، وتنبكتو، وجني، ومالي وغيرها، وقد شكل هذا الاتصال وهذه العلاقات جسورا حضارية بين دول شمال الصحراء وجنوبها وخاصة المغرب الأوسط في الفترة بين القرنين (7هـ- 9هـ/13م - 15م).

وباعتبار المغرب الأوسط كان متفوّقا حضاريا على السودان الغربي، فإنّه مثّل قوة الحضارة بما أتيح له من عوامل مكّنته من التّأثير في السودان الغربي، ولعل هذا التأثير كان له تجلّياته على مناحي الحياة في السودان الغربي، ففي الجانب الفكري والثقافي تكوّنت تراكمات أفرزتها العلاقات بين المغرب الأوسط والسودان الغربي، كما أنّ لعلماء المغرب الأوسط اليد العليا في صناعة المشهد الفكري والثقافي في السودان الغربي.

وبناء على ذلك نتساءل عن تجلّيات التّأثير الفكري والثقافي للمغرب الأوسط في السودان الغربي.

أولا - العلوم:

1 - العلوم الدينية (النقلية):

ولّد الإسلام دافعية فكرية وعلمية لدى أهل السودان الغربي كغيرهم من الأمم، وأصبح للإسلام مكانته في الأوساط السودانية مما جعلهم يجتهدون في التعرف لمبادئه

وتعاليمه، ولم يكن من بدٍّ في فهم الدين إلا عن طريق تعلم العلوم الشرعية، فاقبل طلبة العلم على تحصيلها، وفي مقدمتها:

أ- الفقه: عرفت المدارس وأماكن العبادة في تاريخ بلاد السودان الغربي انتشار كتب الفقه المالكي، مثل مختصر خليل، وجامع المعيار، وتحفة الحكام، مختصر الفروع والمدونة، والرسالة وكتاب الموطأ.

وقد ذكر "أحمد بابا التنبكتي" (ت **1036**ﻫ) أنه درس على يد أستاذه بغيغ قائلا: «قرأت عليه بلفظي مختصر خليل وفرعي ابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير ختمتها عليه، أما خليل فمرارا عديدة... وحضرته كثيرا في الملتقى والمدونة بشرح المحلي ثلاثا... وسمعت بلفظه جامع معيار الونشريسي كاملا... وكثير من تحفة الحكام لابن عاصم في الأحكام مع شرح». [1]

ب- التفسير: درس طلاب السودان الغربي التفسير على أيدي علماء المغرب الأوسط والإسلامي عامة، ومن المؤلفات التي كانت تدرّس في هذا المجال البدر المنير في علوم التفسير تأويلي السور الأولى من القرآن للعالم التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت **909**ﻫ/ **1503**م).

ج- الحديث: درسوا عدة مؤلفات منها علوم السنة مغني النيل، شرح مختصر خليل، مفتاح النظر في علوم الحديث لمحمد بن عبد الكريم المغيلي (ت **909**ﻫ/ **1503**م). [2]

2 - العلوم اللّسانية:

للغة العربية أهميتها، كونها لغة الوحي، وهي بذلك رديفة للإسلام حيث انتشرت بانتشاره في بلاد السودان الغربي، ويذكر ابن بطوطة (ت **779**ﻫ/**1377**م) أنّ أهل البلد من السودانيين حريصون على تعلم لغة القرآن من أجل فهمه وحفظه. **3** وهذا دليل على الرغبة التي كانت تحذو السودانيين في طلب اللغة العربية وعلومها.

ومما يُذكر أن السلطان منسى موسى نفسه كان يجيد اللغة العربية ويكتب بها رسائله، [4] وانتشرت اللغة العربية بين السكان في الحواضر والمحطات التجارية، وكانت الصلاة وقراءة القرآن باللغة العربية، كما ساعدت عوامل على تمدد العربية وتوسع استعمالها، وأولها

وجود مدرسين من أصول مغربية انتموا إلى البيئة العربية استطاعوا توصيل أصول وقواعد اللغة على هيأتها الأولى، حيث درّس العديد منهم في بلاد السودان ومنهم علماء المغرب الأوسط، بين القرنين الثامن والتاسع الهجريين، الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، مثل الشيخ اللبان وابنه محمد والعلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي.... [5]

وكان الصبي عندما يصل إلى السابعة أو ما دونها يعهد به والده إلى معلمي الكتاتيب لتعليمه، وتلقينه المبادئ الأساسية في القراءة والكتابة باللغة العربية، وتحفيظه القرآن وتدريبه على الصلوات الخمس، وكانت الكتابة على الألواح الخشبية، ويستمر هذا تحت مراقبة المعلم حتى يختم القرآن حفظا وكتابة، كما يتعلم في هذه المرحلة قسطا مهما من قواعد اللغة العربية ونحوها، وهذه الطريقة هي مشابهة إلى حد كبير مع الطريقة المتبعة في المغرب الأوسط والشمال الإفريقي. [6]

في البداية، كان التعامل باللغة العربية محدودا، إذ اقتصرت على المتبايعين، حيث تعلمها التجار المحليون وقاموا بنشرها شيئا فشيئا أثناء الممارسة اليومية في الأسواق وتسربت تلك الألفاظ إلى اللغات المحلية فأصبحت جزءا منها، فالهوسا مثلا استعملوا كلمات السرج والحرير والزعفران واللجام والقلم، وكل هذه السلع كان تجار تلمسان يصدّرونها لبلاد السودان الغربي. [7]

فالبحوث الفيلولوجية واللسانية تبين مدى صلة اللغات الإفريقية باللغة العربية؛ إذ تعتبر لغة أمٍّ لعدد كبير من الشعوب الإفريقية، كما تعتبر لغة اتصال بين العديد من القبائل الإفريقية التي لازالت تحتفظ بلغتها الخاصة، ففي يوغندا، وكبنبا، وجنوب السودان تسود لغة تعرف بـ"عربي جوبا" كل مفرداتها عربية، غير أنّ طريقة استخدامها لا تلتزم قواعد العربية، فضلا عن التحريف في طريقة نطق واستخدام المفردات وهي اللغة السائدة عند القبائل الاستوائية والنوبة.

أمّا صلة اللغة العربية بلغات الفولاني والصومالية والسواحلية والأمهرية وغيرها، فهي وثيقة جدّا، فالسواحلية استعارت مجموعة من المفردات العربية، يقدّرها العرب السواحليون بحوالي 75٪ من مفردات السواحلي، وفي مجال الدّين فإنّ 90٪ من المصطلحات مستعارة من اللغة العربية.

وقد ظلّ "الحرف العربي" إلى عهد قريب هو الأساس الذي كُتبت به معظم اللغات الإفريقية، فالسواحلية والصومالية والفولانية والهوسا، بدليل أن هناك مخطوطات عديدة تعود للغات المذكورة، مكتوبة بالحرف العربي، محفوظة في عدد من خزانات الكتب في البلاد الإفريقية، وكانت اللغة العربية هي لغة الحكم والإدارة في معظم الدول الإفريقية فالمكاتبات الرسمية في دول مثل كانم، ودّاي، سكوتو، مالي، غانة، وغيرها كانت جميعها تكتب باللغة العربية حتى سقوط هذه الدويلات بسبب الحملة الاستعمارية الجائرة على إفريقيا [8]. حيث يذكر "توماس أرنولد" أن اللغة العربية بلغت: «حدا يفوق الوصف، بل إنها أصبحت لغة التخاطب بين بعض قبائل القارة، وهي إلى ذلك لغة الشريعة المكتوبة وهذا تقدم للحضارة الإفريقية...». [9]

وقد استعمل السودانيون أنواعا عدة من الخط العربي، منها الفارسي والخط المغربي، وهذا أكبر مظهر عربي في إفريقيا، وهو ذلك الحرف الذي كُتب به التراث الإفريقي. ليلعب هذا الحرف أكبر دور في الحفاظ على اللغات الإفريقية الأخرى بكيانها، إذ به تمت ترجمة أفكار ومعارف هذه اللغات، وهناك نحو ثلاثين لغة إفريقية مكتوبة بالحرف العربي، واستمر ذلك بجهد الإفريقيين أنفسهم، وإصرارهم بانتمائهم إلى العروبة والإسلام. [10]

وانتشر بين أهل السودان الغربي تعليم علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وعروض، واشتهرت بينهم المصنفات والمتون، وتداولوا كتاب تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك وشرح الكافية في علم النحو، ولامية الأفعال، وتلخيص المفتاح وشرحه، وهذه المؤلفات هي نفسها التي كان يؤخذ منها علم اللغة في البلاد الإسلامية الأخرى.

واستطاعت نخبة من السودانيين أن تصل إلى مرحلة التأليف والتصنيف وتعليم اللغة، فمنهُم من تتلمذ وأخذ عن علماء المغرب الأوسط، وممن كان له باع في علوم العربية نذكر:

- أحمد بن عمر بن محمد أقيت
- أبوعبد الله أحمد بابا بن الأمين المختار التنبكتي
- محمود بن عمر
- أبو حفص عمر بن أحمد أقيت

- أحمد بابا التنبكتي (ت 1036هـ)

وللأدب والشعر حظ عند أهل السودان، فقد تأثّروا بما أنتجه أهل المغرب الأوسط من أدب سواء كان نثرا أو شعرا، خاصة شعراء تلمسان، ومما يؤكّد ذلك التّأثر قول الهادي مبروك الدالي: « والدارس للتراث الإفريقي... فلا نلمس فرقًا كثيرا في الأدب... فالإيقاع واحد والكلمات تحمل نفس المضمون، وإن اختلفت في الألفاظ... والذي يتغنى به الشاعر المغربي يتغنى به شاعر تمبكتو وجاو وجني وأقدز وكانو وبرنو... » [11]، ويبدو هذا التّأثر أمرا طبيعيا، مع وجود عامل الانجذاب من قبل أهل السودان الغربي للغة العربية وآدابها.

وفي ميدان الشعر، نجد غرضين برزا على الأغراض الأخرى هما المدح، والرثاء، واشتهر من الشعراء السودانيين الشاعر المختار بن القاضي أندغ محمد، وله عدة قصائد من بينها قصيدة يمدح فيها السوقيين قائلا:

جزى الله أهل السوق عنا بخيره فما حسدوا فضلا وما نطقوا جهرا
فإنهم ذاقوا عسيلة علمهـــم فأورثهم فضلا وأعقبهم ذخـــــرا

وكذلك الفقيه المختار بن أبداه يقول مادحا أحمد بابا التنبكتي بقوله:

حسبي من آل الشيخ بابا أحم الطيب المحبب المحمد
الفاضل المبارك المود الطاهر الحلاحل الزيد الجد

أما من قصائد الرثاء نجد مرثية الشيخ سيدي يحي التادلي للفقيه محمود بن محمد الكابري حيث قال فيها:

تذكر في التذكار جل فوائد وفي طيه ورد على خير وارد
ألم تر سفر الحث بالفضل خصصوا وسفر ذوي الأفكار أخطى بزائد

أما فيما يخص الكتابات النثرية التي اتسمت بطابع الأدب وانتمت إلى مجالات مختلفة مثل فن التراجم وكتابة التاريخ ورواية الأخبار والرسائل الديوانية التي كانت تصدر عن مراسلات الملوك وتدخل ضمن العلاقات الدبلوماسية، نجد أن علماء السودان الغربي لم يهملوا هذا الجانب، وألّفوا فيه مؤلفات عديدة منها ما ألّفه العلامة أحمد بابا التنبكتي (ت 1036هـ) في التراجم بعنوان: "نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وكفاية المحتاج لمعرفة من لبس الديباج هو مختصر لنيل الابتهاج" ومن بين كتب التاريخ ما ألفه بابا كور بن الحاج محمد بن

الحاج الأمين بعنوان: "الحسان في أخبار بعض ملوك السودان"، و"تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان" لمجهول، و"تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس" وذكر وقائع تكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد عن الأحرار. [12]

كما استفاد أهل السودان الغربي من كتابات علماء المغرب الأوسط، لاسيما رسائل، الامام محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت **909**هـ/ **1503**م) مع العديد من ملوك السودان الغربي، كرسالته لأمير كانو أبي عبد الله بن يعقوب والتي سماها "تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين" والتي افتتحها بقوله: «.وفقك الله للتقوى وعصمك من نزغ الهوى، فإن الإمارة خلافة من الله ونيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما أعظم فضلها، وما أثقل حملها، إن عدل الأمير ذَبَحَتهُ التقوى، بقطع أوداج الهوى وإن جار ذبحه الهوى بقطع أوداج التقوى وعليك بتقوى الله ... وسأذكر لك من ذلك جملة مختصرة في ثمانية أبواب». [13] وكذلك رسالته مع حاكم سنغاي الأسقيا محمد الكبير إجابة عن أسئلته التي عنوانها "أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي" والتي تناولت في عمومها الجوانب العقيدية والدينية وحتى الأحوال الاجتماعية.

3 - العلوم العقلية:

اهتم أهل السودان الغربي بالعلوم العقلية وتلقّوها عن علماء المغرب الأوسط، ومن تلك العلوم علم الفلك وعلم الكلام وعلم المنطق، وتداولوا شروحاتها وأراجيزها كما أتقنوا حفظها وأضافوا إليها حواشيا وشروحا.

أ- علم الكلام والمنطق: كان لهذين العلمين مكانة عند المسلمين، رغم ما دار عليهما من جدل إلا أنّهما لقيا إقبالا على مستوى التأليف والشرح والتعليم، فهُما من علوم الآلة التي يُتمكّن بها من الاستمساك بالعلوم الأخرى كالعقيدة والفلسفة والخوض في الإلهيات، وغير بعيد عمّا كان يتصوّره علماء المسلمين عن علم الكلام والمنطق، وقف علماء السودان الغربي موقف المتعلّم والشارح والحافظ للأصول الكلامية والمنطقية، وفي هذا الشّأن يذكر التنبكتي (ت **1036**هـ) ناقلا عن نفسه ما كان بينه وبين شيخه محمد بن محمود التنبكتي المعروف ببغيغ (ت **1002**هـ) أثناء تتلمذه على يديه: «... لازمته أكثر من عشرين سنة فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل... وختمت عليه تلخيص المفتاح مرتين وبعض

الثالث بمختصر السعد وصغرى السنوسي مع شرح الجزيرية وحضرت عليه الكبرى وشرحها... ورجز المغيلي في المنطق... وبالجملة فهو شيخي وأستاذي ما انتفعت بأحد انتفاعي به ويكتبه رحمه الله... » [14].

فالذي يلمح من هذا القول عناية الشيخ بتلميذه وحرص التلميذ على تلقي العلوم من شيخه الذي لازمه فترة عشرين سنة، كما يبين مدى الإجلال الذي يكنّه التلميذ لشيخه.

ومن العلماء الذين اشتهروا في هذا المجال إضافة إلى العلوم الأخرى، عمر بن محمد نض (الخطاط) (ت **1107**هـ) الذي كان مداوما على علم الكلام قراءة ونقلا وتعليما، وحُكي عنه أنه قال:" لو علمت عقيدة من علم الكلام لا أعرفها وفي مصر من يُعلّمها لرحلت إليها أتعلّمها"، وكان هو شيخ علم الكلام في زمنه مُبرّزا فيه يقرأ كتب السنوسي التي انتشرت في الأقطار الإسلامية وأصبحت مرجعا في علم المنطق، وقول الشيخ عمر نض ينمُّ عن الرغبة في تحصيل العلم، وكذا إدراكهم لأهمية تلقيه من مظانّه وينابيعه الأصيلة لذلك جاء على ذكر مصر لما لها من مكانة علمية إذ بها الأزهر الذي كان قبلة للعلماء من كل فجّ عميق، وما يلحظ أن علماء السودان الغربي وعلى مر القرون التي كانت تالية لفترة مجيء الشيخ المغيلي (ت **909**هـ/ **1503**م) حيث تناولوا منظومته في المنطق بالحفظ والشرح، وفي هذا الخصوص يذكر التنبكتي في نيل الابتهاج ترجمة لجملة من العلماء الذين انتهجوا ذلك السبيل، منهم:

أحمد بن أحمد بن عمر أقيت (ت **991**هـ) الذي قال عنه أنّه: « كان علاّمة فهامة ذكيّا درّاكا محصّلا متفنّنا محدّثا أصوليا بيانيا منطقيا .. شرح منظومة المغيلي شرحا جامعا حسنا...، وفي الأصول وغيرها ، وعلى الصغرى للسنوسي والقرطبية...» [15].

ب- علم الفلك: وهو من العلوم التي اهتم بها السودانيون ودرسوا كتبه، منها:

"الهاشمية في التنجيم" ومقدمة الشيخ عبد الرحمان التاجوري وتأليف مكتوب في شهور السنة على حساب العجم لأبي العباس أحمد بن البناء الأزدي، والشيء الملاحظ أن السودانيين لم يولوا أهمية كبرى لتلقين طلابهم العلوم الدقيقة (من جبر، وحساب، وهندسة...). [16]

وعلى كل حال فإنّ تلقي أهل السودان للعلم كان عن طريق ارتحال علماء المغرب الأوسط إليهم أو حدوث العكس بارتحال السودانيين إلى المغرب الأوسط، ويضاف إلى ذلك تطبيقهم لطرق التدريس التي كانت متّبعة في المغرب الأوسط سواء تعلّق الأمر بمراحل التعليم أو الكتب التي كانت مصادر للمادة العلمية.

وفي سياق تحصيل العلوم نقلية كانت أو عقلية عمل السودانيون على تدريس ما كان متداولا عند أهل المغرب الإسلامي من متون وشروح وتفاسير ومختصرات شملت دراسة القرآن والحديث واللغة والمنطق، وشاع ذلك في حواضر السودان الغربي مثل جني وغاو وتمبكتو وغيرها، ومن بين هذه الكتب: تفسير الجلالين وموطأ الإمام مالك في الحديث والفقه والصحيحين البخاري ومسلم، حيث ذكر السعدي عن العلامة المحدّث أحمد بن الحاج أحمد بن محمد أقيت أنه كان يدرس الصحيحين في مسجد سنكري.[17] والشفاء للقاضي عياض في السيرة ومدونة سحنون، والرسالة في الفقه المالكي، ومختصر خليل، والمنتقي للباجي، وشرح الموطأ، ومختصر ابن الحاجب الفرعي في الفقه المالكي، ومختصر ابن الحاجب الأصلي في الأصول، وتهذيب البرادعي، والدرر اللوامع لابن بري التازي.

إضافة إلى "المعيار المعرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب" للونشريسي، وجامع المعيار للونشريسي، و"دلائل الخيرات" لمحمد بن سليمان الجزولي، ومدخل ابن الحاج، و"البيان والتحصيل" لابن رشد، والجامع الصغير للسيوطي، وألفية العراقي في علوم الحديث مع شرحها، وسيرة ابن هشام، والجزائرية للزواوي. ورجز المغيلي الكبرى في المنطق وشرحه لأحمد بن أحمد بن عمر بن محمد بن أقيت، وتحفة الحكام والعباد، وعقائد السنوسي في التوحيد الكبرى والوسطى والصغرى، والخزرجية في العروض بشرح الشريف، والعشرينيات في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وحكم ابن عطاء الله مع شروح زروق عليه، والهاشمية في التنجيم مع شرحها، ومقدمة التاجوري، والبسط والتعريف في علم التصريف للمكودي ولامية ابن المجراد السلوي في الجمل، والمرشد المعين لابن عاشر الفاسي ولامية الزقاق وإضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة ل أحمد المقري، ومقامات الحريري في الأدب العربي. وألفية الأثر في الحديث، وشرح النقابة في الأصول، والبيان والتصوف،

وشرح الكوكب الساطع في نجم جمع الجوامع وهو في الأصول وشرح الكوكب الوقاد في الاعتقاد والشاطبية. [18]

إن هذه المصنفات والتآليف كانت مقررة على طلبة العلم في السودان الغربي والتي انتشرت سريعا في المراكز الثقافية، بفضل سلاطين الممالك السودانية، الذين كان لهم دور كبيرا في اقتناء المؤلفات خاصة المالكية منها على غرار ما فعله السلطان منسى موسى وكذلك الطلبة الذين قاموا بالرحلة لطلب العلم في الأقطار الإسلامية، فخرجوا ومعهم المؤلفات والكتب وكذلك العلماء خاصة المغاربة منهم الذين انتقلوا إلى السودان الغربي للتدريس به فأحضروا معهم المؤلفات والمصنفات والتي قاموا بتدريسها لطلبة العلم بالسودان الغربي.

إذا كان ظهور الطرق الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرن السادس عشر دليلا على ضعف الحكام، فإن في السودان الغربي كان لها دورا كبيرا في نشر الإسلام والقضاء على المعتقدات الفاسدة، كعادة وأد الأطفال، وذلك لعدة أسباب، منها قد يوأد الطفل لأنه ولد من قدميه بدلا من رأسه، أو لأنه ولد ينقص أو يزيد أصبعا عن الأخرى، والكهانة، والسحر والشعوذة وقراءة الأثر وضرب الرمل واستحضار الأشياء، فقد عملت الطرق الصوفية. على تعليم الناس مبادئ الإسلام وشرائعه السمحاء، ومن بين هذه الطرق التي كان لها دورا بارزا في السودان الغربي. [19]

ثانيا - مساهمة الإمام المغيلي (ت 909هـ/ 1503م) في النهضة الفكرية والثقافية في السودان الغربي:

شهد المغرب الأوسط خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر ميلادي نبوغ كثير من العلماء الذين كان لهم الفضل في ازدهار الحركة الفكرية والثقافية في المغرب الأوسط وفي غيره من الأقطار الإسلامية، لكن من أبرزهم الإمام المغيلي الذي تميز بنزعته الإصلاحية والجهادية وروحه البطولية الشجاعة التي دفعته إلى الترحال إلى السودان الغربي من أجل إصلاح أوضاع المسلمين وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وقت كانت فيه الرحلة شاقة بل وخطرة.

واشتغل المغيلي بتأليف الرّجال وتأليف الكتب حتى صار له في كل علم طرف وتنوعت مصنفاته، ممّا جعل الكثير من المؤرخين يثيرون الكلام حول شخصيته وما خلّفه من آثار

إصلاحية بهذه المنطقة وهذا ما دفعنا لتقصي حركته الإصلاحية وما خلفته من آثار إيجابية في السودان الغربي حسب التنبكتي [20].

سنحاول أن نتتبع رحلته إلى بلاد السودان الغربي ونورد أهم الأدوار التي قام بها، إذ رحل إلى أكدز من بلاد كانم فأقام بها واتصل بحكّامها، وقدم لهم النصح كعادته ومكث بها مدة تقارب السنة، فأنشأ خلالها مسجدا عرف ب"مسجد الكرامة"، حيث أخذ يدرّس أهالي المنطقة، ومن بين الذين حضروا دروسه الفقيه محمد بن أحمد بن أبي محمد التازختي المعروف بأيد أحمد والعاقب الأنصمني كما ذكرنا سالفا. [21]

بعد أكدز أو أقدز انتقل إلى الهوسا أين واصل نشر فكره الإصلاحي، واتصل المغيلي بأمير كانو [22] محمد زنقا بن يعقوب الذي قربه إليه. فكتب له رسالة سماها " تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين" وهي عبارة عن مجموعة من النصائح والأحكام الشرعية فيما يجوز للحاكم في ردع الناس عن الحرام، وهي تشبه الوصية في إيجازها وشمولها التي بعث بها عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما، كما كتب له مجموعة أخرى في شؤون الإمارة وتنظيم الدولة وسماها: "ما يجب على الأمير من حسن النية للإمارة" وهي تشبه وصية الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز في وصف الإمام العادل. [23]

استطاع بشخصيته المميزة وعلمه التأثير في أهل بلاد السودان الغربي، وبعدما لاحظ إقبال الناس عليه قام ببناء المدرسة المعروفة في مدينة كانو بمدرسة الشيخ المغيلي، وقام بالتدريس فيها ونشر فكره وقد قصدها الطلبة من جهات مختلفة من إفريقيا وغيرها، فتخرج على يده مشائخ يعدّون بالآلاف وهم يدينون له بالولاء الفكري والأدبي ويعترفون بفضائله على مجتمعاتهم السودانية الإسلامية، وقد اتخذه حاكم كانو مستشارا له وولاه القضاء والإفتاء في الفترة التي قضاها ببلاده. [24] بعدما أنهى المغيلي دوره التعليمي والإصلاحي في بلاد كانو توجه إلى كشن [25] التي تولى الإمامة والقضاء بها، فقام بنفس ما قام به في كنو من تعليم وإرشاد وإصلاح، ثم انتقل إلى بلاد التكرور والتقى بحاكم سنغاي محمد الكبير بغاو عاصمة الدولة، فأكرمه وكتب له سبعة أسئلة، فأجابه المغيلي عنها [26]

تتمثل أهمية هذه الأجوبة أنها تلقي الأضواء على الوضع الاجتماعي والسياسي بدولة سنغاي أثناء عهد الأسقيين، [27] بعد غاو انتقل الإمام المغيلي إلى تمبكتو حيث التقى بسيدي

عمر الكنتي بن علي، فلازمه وتبعه في كل جولاته الداعية إلى نشر الدين الإسلامي وتصحيح العقيدة الإسلامية، وسافر معه نحو الشرق والتقيا بالعلامة الجليل السيوطي، وكان للشيخ عمر الكنتي دور في إكمال رسالة محمد بن عبد الكريم المغيلي وفي نشر الطريقة القادرية ببلاد التكرور، وهذا العمل الدعوي والإصلاحي الذي صدر عن المغيلي أسس فيما بعد لقدوم وفود العلماء والفقهاء وتقاطرهم على السودان الغربي.

خاتمة:

نستنتج بعد هذه الاضافة البحثية، إلى أن المغرب الأوسط بسط حضارته على رقعة جغرافية شملت السودان الغربي مما جعل من هذا الأخير يتأثر بذلك الانعتاق الحضاري للمغرب الأوسط، ولم تكن معادلة التأثير والتأثر لحظة عابرة في تاريخ المغرب الأوسط وتواصله مع ما جاوره من الأقطار، وذلك بالنظر إلى التراكم الفكري والثقافي الذي شهده العقل الإسلامي بكل قومياته أدى إلى تخصيب هذا العقل الذي ظهرت منجزاته في فضاءات عدة.

ولعلّ ما يظهر جليا في العلاقات التي ربطت بين المغرب الأوسط والسودان الغربي الجانب الفكري والثقافي الذي يدخل ضمن المساقات الحضارية، وهي علاقات قديمة من حيث بداياتها إذْ كانت أولوياتها مع ظهور الدويلات بالمغرب الأوسط، والحراك التجاري الذي شهدته هاته المرحلة التاريخية، فقد عرفت هذه العلاقات ازدهارا خاصة ما بين القرنين (7هـ - 9هـ/13م - 15م) والتي اقترنت بالحكم الزياني في ظل القطبية الحضارية لمدينة تلمسان حاضرة المغرب الأوسط، فقد استوت على سوق التحضر آنذاك حتى صارت جوهرة الفن والفكر والثقافة ومعدن الأصالة والتمدن ومهبط العلم والعلماء، يشهد لها بذلك القاصي والداني، فكم من فقيه عانق مجالسها، وكم من لغوي تروى من رحيق علمائها، وكم من سالك ارتقى في مقامات الولاية ونال المقام بها.

كما أن السودان الغربي يدين للمغرب الأوسط بالأثر الإيجابي في الجانب الفكري والثقافي بصفة خاصة والحضاري بصفة عامة، الذي انعكس على التراث المادي بتجلياته المعمارية المجسدة في حواضر السودان الغربي كتنبكتو وجني وغاو...، فكانت اللمسة

المعمارية المغاربية حاضرة في المساجد والمنازل والقصور السودانية.كل هذه المعطيات جعلت بيئة السودان الغربي بيئة مشجعة للتواصل الحضاري مع المغرب الأوسط.

الإحالات:

1- أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج لتطريز الديباج، ج1، تق عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الاسلامية، ط1، طرابلس، 1989، ص 602.

2- أحمد أبو الصافي جعفري: حوار الإمام المغيلي (ت 909هـ/ 1503م) مع ملوك وأمراء غرب إفريقيا و أثره في حركة الفتح الإسلامي لإفريقيا، كتاب تاريخ توات (أبحاث في التراث)، دط، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 2008، ص 05. ينظر: التنبكتي: المصدر السابق، ص ص 577-578.

3- ابن بطوطة (ت 779هـ/1377م): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دط، شر وكتب هوامشه طلال حرب، دار الكتب العلمية، دت، ص 697.

4- شهاب الدين أحمد بن يحي بن فضل الله القرشي العدوي العمري (ت 749هـ/1349م): مسالك الإبصار في ممالك الأمصار، ج4، ط1، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1423هـ، ، 122/4 وما بعدها.

5- ابن بطوطة (ت 779هـ/1377م): المصدر السابق، ص ص696- 697. ينظر: لطيفة بشاري: إسهامات التلمسانيون في المجالين الاقتصادي والديني بالسودان الغربي، أعمال الملتقى الدولي بتلمسان، أيام 3- 4- 5 أكتوبر 2011، كتاب تلمسان الإسلامية عن التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، ج2، دط، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، 2011، ص 82.

6- عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي: تاريخ السودان، مطبعة بردين، باريس، 1981 ، 29/1.

7- لطيفة بشاري، المرجع السابق، ص ص 82- 83.

8- إبراهيم محمد أحمد بلولة: الهجرات والقوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية، مجلة دراسات دعوية، ع 9 ، فبراير 2005م، ص 82- 83.

9- توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، تر حسن إبراهيم حسن، القاهرة، 1957م، ص 398.

10- محمد عبد الرحمان الباشا: السمات المشتركة بين الثقافة العربية والإفريقية، فرع المركز العالمي للدراسات والأبحاث، الدار البيضاء، دت، ص 07.

11 ـ الهادي مبروك الدالي: آفاق لأدب إفريقيا فيما وراء الصحراء، ط1،دار حنين للطباعة والنشر، بيروت، 1996، ص28

12 ـ بودواية مبخوت: العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد بني زيان، رسالة دكتوراه دولة، مرقونة، في تاريخ المغرب الإسلامي، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2005- 2006م، ص ص208- 210.

13- محمد بن عبد الكريم المغيلي: تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، تح محمد خير رمضان يوسف، ط1، دار ابن حزم بيروت، 1994، ص ص 15 - 16.

14- التنبكتي: المصدر السابق، ص602.

15- نفسه: ص141 وما بعدها.

16- بودواية مبخوت: المرجع السابق، ص 212.

17- السعدي: المصدر السابق، ص 33.

18- أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي (ت 884هـ/1479م)، صاحب اللامية المشهورة في علم الكلام، عرفت في السودان باسم المنظومة الجزائرية. ينظر: بودواية مبخوت: المرجع السابق، ص 229.

19- بودواية مبخوت: المرجع سابق، ص 255.

20- التنبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 577.

21- عمار هلال: الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء، المرجع السابق، ص 75.

22- كنو أو كانو إقليم شرقي النيجر يضم عدة شعوب، وفي وسط هذا الإقليم مدينة استمد منها اسمه، ينظر الوزان الحسن بن محمد الفاسي: وصف إفريقيا، ج2، تح محمد حجي، محمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983، 2 /173.

23- بودواية مبخوت: المرجع السابق، ص 250.

24- محمد بن عبد الكريم المغيلي: مدونة نازلة يهود توات، مج5، دط، تح مقدم مبروك، تق بو عبد الله غلام الله دار القدس العربي ، وهران، 2011م، ص 31.

25- كشن: كاتيسنا هي مملكة مجاورة لكانو من جهة الشرق. ينظر الوزان: المصدر السابق، 2/173-174.

26- ابن مريم أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الشريف المليتي المديوني التلمساني، (كان حيا 1025هـ/1611م)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، 1336هـ-1908م، ص 255.

27- المغيلي محمد بن عبد الكريم: أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، دط، تح وتق عبد القادر روبايدية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص 17.